الأب بيير جورجو جانتسا

الأسرة مهد الإيمان

سلسلة
الإيمان
القدس

سلسلة «باب الإيمان»

التنشئة المسيحية

١. الأسرة مهد الإيمان

منشورات مكتبة يسوع الملك
بيت ساحور

مطبعة البطريركية اللاتينية – القدس
بيت جالا – ٢٠١٣

مقدّمة

إن أماكن التربية الدينية متعدّدة في الكنيسة، وأهمّها البيت والمدرسة والرعية. وهذا ما يدعوه المخطّط الرعوي العام «المثلث التربوي»، ويضيف: «ما لم تأخذ كلّ مؤسسة من هذه المؤسسات الثلاث دورها كاملا وبشكل متكامل ومنسّق، فستظل التربية الدينية تفتقر لإحدى عناصرها الأساسية. وهي تتكامل فيما بينها بحيث أن الواحدة تعطي ما لا تستطيع الأخرى أن تعطيه». من هذا المنطلق، ينتقل المخطّط الرعوي إلى أحد أضلع هذا المثلث، وهو البيت المسيحي، ليصفه على أنّه «البيئة الأولى التي تتمّ فيها التنشئة المسيحية». يقول المخطّط الرعوي: «هنالك إدراك متزايد لدى المؤمنين للأهمية القصوى التي تضطلع بها الأسرة في التربية الدينية». ويتابع القول: «والبيت المسيحي في بلادنا لم يأخذ بعد دوره الكامل في هذا المجال، وعلى الكنيسة القيام بمجهود رعوي خاص لتوعية الأهل على مسؤولياتهم وطريقة القيام بها وتوفير الأدوات الضرورية لها، بالإضافة إلى العمل الحثيث لتقوية إيمانهم هم أنفسهم في ظل الظروف الحالية». (ص ٢٤–٢٥)

في هذا الإطار، يأتي هذا الكتيّب حول التربية الدينية في البيت المسيحي. فهو يرمي إلى سدّ ثغرة في هذا المجال، إذ يقدم

للكنيسة بشكل عام، وللأهل بشكل خصوصي الأداة التي يمكن أن تساعد على «توعية الأهل على مسؤولياتهم وطريق القيام بها». فهذا الكتيّب هو إحدى هذه «الأدوات،»، التي تسعى لهذا الغرض.

نجد في هذا الكتيّب أولا رحلة في الكتاب المقدس تبيّن أهمية التربية الدينية في البيت، خصوصا من خلال نماذج حيّة (الفصل الأول والثاني)، ومن ثم ينتقل إلى التأمل في بيت العائلة المقدسة في الناصرة، ليستقي منه أسس هذه التربية المستوحاة من حياة عائلة الناصرة بكلّ جوانبها (الفصل الثالث). وبعد ذلك، يتوقف الكتيّب عند الأمور العملية، أي كيفية التربية الدينية في البيت، وما يرتبط بها من علاقة بالكنيسة وبالمجتمع (الفصل الرابع). وفي الفصل الأخير، يقدّم الكتيّب مجموعة من النماذج القديمة والحديثة لعائلات قامت بهذه الرسالة على أحسن وجه. نرجو أن يكون هذا الكتيّب عاملا في إشاعة الوعي حول أهمية التربية الدينية في البيت، كما نرجو أن يكون حافزا للمزيد من الأدوات التي تساعد عائلاتنا المسيحية على إدراك رسالتها، في الكنيسة والمجتمع.

الفصل الأول

الجدّة لئيس والأم أوْنقة... وآخرون

لئيس وأَوْنِقة

عندما نقرأ هذا العنوان، نتساءل عفويّا: «مَن هي الجدّة لئيس ومن هي الأم أونقة؟ إنّها اسماء غريبة لم نسمع بها قط». نعم، ليس هذان الاسمان مشهورين، ومع ذلك، نرى أنّ القديس بولس يذكرهما ويشيد بهما. ففي بداية رسالته الثانية إلى طيموتاوس، يكتب الرسول هذه الكلمات الجميلة: «وأذكرُ ما بكَ من إيمان بلا رياء، كان يعمُرُ قَبْلا قلب جدَّتك لئيس وأُمِّكَ أَوْنقَة، وأنا موقنٌ أنه يعمُرُ قلبك ايضا» (٢ طيمو ١: ٥). صحيح أنّ الإشارة تبدو عابرة، ولكنّها لا تخلو من أهمية. فهي تبيّن كيف أنّ طيموتاوس، تلميذ بولس، وهو الآن معلّمٌ مثلَه، نشأ على الإيمان في حضن الأسرة. فقد كانت لئيس جدّته أولا، ومن ثمَّ أونقة أمّه، أوّلَ من علّمه الإيمان. فقد تعرّف طيموتاوس على يسوع وتعاليمه من فم جدّته ومما رَوتْه أمه. وأكثر من ذلك، يمكن القول إنّه رأى كيف تعيش أمّه وجدّته الإيمان في حياتهما اليومية، ومنهما تعلّم كيف يعرف يسوع ويحبّه. أضف إلى ذلك أنّ لوقا الإنجيلي، في فقرة من أعمال

الرسل، يشيد بأمّ طيموتاوس، ويصفها على أنها «يهودية مؤمنة» (أعمال ١٦: ١)، وكلمة «مؤمنة» تعني «مسيحية». فهي تؤمن إيمانا حيّا أنّ يسوع هو المسيح الذي ينتظره اليهود وجميع الشعوب، وتنقل هذا الإيمان إلى ابنها طيموتاوس.

وبهذه المناسبة، يمكن القول إنّ الجدّة لئيس والأم أونقة كانتا تردِّدان المزمور ١٤٥ بكلّ إيمان، وهو الذي يبدأ بهذه الآيات الرائعة:

«يا إلهي الملك أعظِّمُكَ وأَبدَ الدهور أُبارِكُ اسمك. في كلّ يوم أُبارِكُك وأبدَ الدهور أُسبِّح اسمكَ. الربُّ عظيمٌ ومُسبَّحٌ جدًا ولا حدَّ لعظمته. من جيلٍ إلى جيل يُسبِّحون أعمالَك ويُخبرون بمآثرك. أتأمَّلُ فيَ بهاء مجد جلالكَ وفي أمرِ عجائبِك. يَتَكلّمون بعزّة مخاوفكَ وأحدِّث بعظائمك. بِذكْرِ وَفْرَة صلاحك يفيضون وببرِّك يُهلِّلون. الربُّ رحيمٌ رؤوف طويل الأَناة وعظيمُ الرحمة. الربّ يرأف بالجميع ومراحمُه على كلّ أعماله. لتحْمَدْكَ يا ربّ جميعُ أعمالِك وليُبارِكْكَ أصفياؤُك!».

(المزمور ١٤٥: ١–١٠)

من الآباء إلى الأبناء إلى الأحفاد

هذه هي الحقيقة: «من جيل إلى جيل يسبّحون أعمالك» (الآية ٤)، من أسرة إلى أسرة، من أبٍ إلى أبناء وأحفاد، وهكذا. من

لئيس إلى أونقة، ومن أونقة إلى طيموتاوس، ومن طيموتاوس إلى تلاميذه ومُستَمعيه الكثيرين. فقد كُرِّسَ لخدمة شعب الله على يد الرسول بولس، كما يشهد بذلك الرسول نفسه عندما يقول في رسالته: «أنبِّهُكَ أن تذكِّي هبة الله التي فيك بوضع يديَّ» (٢ طيمو ١: ٦). ولكن الأهمّ لموضوعنا هو الوصية التي يوجهها بولس إلى تلميذه طيموثاوس: «واستودِعْ ما سمعتَه مني بمحضر كثير من الشهود أناسا أمناء بأن يعلّموا غيرهم» (٢ طيمو ٢: ٢). هنا تظهر بوضوح هذه السلسلة من الشهود، التي تشكّل التقليد. يستلم كثيرون شُعلة الإيمان، ويُسلِّمونها بدورهم إلى غيرهم، وهؤلاء، بدورهم، إلى آخرين، وهكذا دواليك. ويكرِّر بولس اليوم لنا، وخصوصا إلى الأهل والأُسر المسيحية، الوصية عينها: «لقد قبلتُم الإيمان ممَّن هم قبلكم. حافظوا عليه، عيشوه، علّموه، بالقول والمثل، ساعدوا على تطبيقه، أُنقلوه لأبنائكم. إن الإيمان هو العطية الكبرى التي يمكنكم أن تمنحوها للجماعة المسيحية. وهكذا، تكون أسماؤكم مكتوبة في السماء».

شهادة العهد القديم

إنّ طريقة نَقْل الإيمان بالله هذه، كانت معروفة في العهد القديم. على سبيل المثال، نجد في سفر طوبيا وصفًا جميلا

جدًّا للأسرة ودورها في التربية على الإيمان. نقرأ أن طوبي (ابن طوبيا)، عندما أشرف على الموت، دعا أبناءه وقال لهم: «والآن، يا أبنائي، فإليكم وصاياي: إعملوا لله بالحق واصنعوا ما يروق في عينيه. وليُعْرَضْ على أولادكم عملُ البرّ والصدقة، وليَذْكُروا الله ويباركوا اسمه في كلّ حين بالحقّ وبكلّ قوتهم» (طو ١٤: ٨). ونقرأُ أيضًا في سفر تثنية الاشتراع، أن موسى، الوسيط بين الله والشعب، نقل إلى الشعب وصية الله التي تقول: «اسمع يا اسرائيل: إن الربَّ الهنَا هو ربٌّ واحد. فأحبب الربّ إلهك بكلّ قلبك وكلّ نفْسك وكلّ قوتك. ولتكن هذه الكلمات التي أنا آمرك بها اليوم في قلبك. وردِّدها على بنيك وكلِّمهم بها». (التثنية ٦: ٤)

نشير أيضًا إلى بداية المزمور ٧٨ الرائعة، حيث نقرأ: «ما سمعْناه وعرفْناه وما أخبَرنا به آباؤنا لا نكتُمُه عن بنيهم بل نُخبر به الجيل الآتي: تسابيحَ الربِّ وعزَّتَه وعجائبَه التي صَنَعها، لأنّه أقام شهادةً في يعقوب ووضع شريعةً في إسرائيل وأوصى آباءَنا أن يعلّموها أبناءَهم، لكي يعلَمَ الجيلُ الآتي البنونَ الذين سيولدون. فيقوموا ويُخبروا أبناءَهم حتى يضعَوا ثقتهم في الله ولا ينسوْا أعمالَ الرب بل يحفظوا وصاياه». (مز ٧٨: ٣-٧)

الفصل الثاني

الزوجان أقيلا وبرسقلة يكوّنان «كنيسة بيتية»

كنيسة الله في بيت أقيلا وبرسقلة

يعرِض لنا سفرُ أعمال الرسل صورةً جميلة لأزواج مسيحيين، لا يعيشون الإيمان فحسب، بل وينقلونه أيضا إلى الآخرين، فيصبحون بذلك مُرسلين. وهما الزوج أقيلا وزوجته برسقلة (أو برسقة)، وهما عبرانيان من بنطس، وقد استقرّا في روما حيث أصبحا مسيحيين. وقد انتقلا أخيرًا إلى قورنتس، حيث كانا يعملان في صناعة الخِيام. وعندما وصل بولس إلى قورنتس ليبشّر فيها، حلَّ في بيتهما بالذات، خصوصا وأنّه كان هو ايضا يعمل في نفس المهنة (راجع أع ١٨: ١-٣). فنراهما يتعاونان مع بولس، ويساعدانه في عمله الرسولي. إنّهما يعرفان معرفةً جيدة الإيمان المسيحي، إلى حدِّ أنّهما، عندما سمعا البُشرى من تلميذ آخر، اسمه ابولوس، لاحظا على التوّ أن تعليمه المسيحي لم يكن كاملا «فأتيا به إلى بيتهما وعرضا له طريقة الرب على وجه أدقّ». (أع ١٨: ٢٦)

لقد قبل أقيلا وبرسقلة هبةَ الإيمان فامتلآ فرحًا. ولكنّهما لا يحتفظان بهذا الكنْز لهما وحدها، بل نقلا هذا الفرح

وهذه العطية أيضا إلى آخرين. وبما أنّهما لم يكن باستطاعتهما أن يكونا رسولين متنقلين على غرار بولس وسائر الرسل، فقد عملا على زرع الايمان قَبْل كلّ شيء في بيتهما، ومن ثَمَّ في البيئة التي تحيط بهما. وهذا ما يشهد له القديس بولس نفسه، الذي يشيد بهما في رسالته إلى أهل رومة، حيث يقول: «سلّموا على برسقة (برسقلة) وأقيلا معاونيّ في المسيح يسوع، فقد عَرَّضا للضرب عنقيهما لينقذا حياتي. لست أنا وحدي عارفًا لهما الجميل، بل كنائس الوثنيين كلّها تعرفُه أيضا. وسلّموا أيضًا على الكنيسة التي تجتمع في بيتهما» (رو ١٦: ٣–٥).

إنّ هذه الآية الأخيرة تشدّد على أن بيت اقيلا وبرسقلة كان كنيسةً بيتية حقيقية. في ذلك الوقت، لم يكن المسيحيون يمتلكون مباني مقدّسة ولا كنائس. لذلك، كان بعض المسيحيين، في المدن والقرى المختلفة، ممن توفرت لهم الإمكانات، يضعون، بكلّ طيبة خاطر، بيوتهم تحت تصرّف المؤمنين لاستعمالها في الاجتماعات والصلاة والكرازة. ففي سفر أعمال الرسل، نقرأ أنّ المسيحيين، منذ البدء، كانوا «يكسرون الخبز في البيوت» (أع ٢: ٤٦)، اي كانوا يحتفلون بالعشاء الافخارستي برئاسة الرسل، وكانوا يصغون إلى تعليم الرسل بشأن الإيمان الجديد، وكانوا متّحدين بالصلاة ويعيشون

في الشركة الواحدة (راجع أع ٢: ٤٢). وبهذه الطريقة، أصبحت البيوت والعائلات الأمكنة الأولى لمولد الايمان ونموه.

مثال بولس

وكان المثال الأول يأتي من بولس نفسه. بفضل مهنة صناعة الخيم الذي كثيراً ما كان يلتقي بالناس. فقد كان يلتقي بزبائنه ويزورهم في بيوتهم، ويتبادل الحديث معهم، ويغتنم الفرصة لكي يُعلن الإيمان. وهكذا، فإنه يكتب إلى أهل قورنتس مُشيرا إلى أنه عمّد «اسرة اسطفانس» (١ قور ١: ١٦)، وفي نفس مدينة قورنتس، آمن «بالرب رئيس المجمع قرسبس وأهل بيته جميعا» (أع ١٨: ٨). وفي مدينة فيلبي، عمّد بولس ليديا «هي وأهل بيتها» (أع ١٦: ١٥). ودعت ليديا، بعد قبولها العماد، بولس ومعاونيه لوقا وسيلا إلى بيتها، قائلة «إذا كنتم تحسبوني مؤمنة بالربّ، فادخلوا بيتي وأقيموا عندي»، ويضيف لوقا: «فاضطررنا إلى قبول دعوتها» (الآية ١٥).

ونجد حالة مشابهة حيث جرى الاستقبال في بيتٍ آخر فقد حصل بعد بضعة ايام، وفي نفس مدينة فيلبي، بحسَب ما يروي لوقا بشكل جميل ودالّ أنْ زُجَّ بولس وسيلا في السجن، ولكنّ الربّ فتح الأبواب ليلا بطريقة عجائبية، مما أتاح لهما أن يخرجا. ولما رأى السجّان «أبواب السجن مفتوحة، استلّ

سيفَه وهمَّ بقتل نفسه لظنّه أن المسجونين هربوا» (أع ١٦: ٢٧). ولكن بولس وسيلا أشاعا الطمأنينة في نفسه، وقالا له: «آمِنْ بالربّ يسوع تنل الخلاص أنتَ وأهل بيتك»، فسار بهما في تلك الساعة من الليل فغسل جراحهما واعتمد من وقته، واعتمد ذووه جميعًا. ثم صعد بهما إلى بيته، فوضع لهما المائدة، وابتهج هو وأهل بيته، لأنه آمن بالله» (اع ١٦: ٣١-٣٤). ثمّ عمّد بولس جميعَ افراد عائلة السجّان.

الكنيسة البيتية

إن المجمع الفاتيكاني الثاني يستعمل هذه العبارة الرائعة «الكنيسة البيتية»، التي يصف بها الأسرة المسيحية، ويذكِّر الأهل بواجبهم (الذي هو أيضا شرف لهم!) أن يكونوا أوّل مُربّي الإيمان في الأسرة. نقرأ في الدستور العقائدي للكنيسة: «وعلى الوالدين، في نطاق هذه الكنيسة البيتية، أن يكونوا لأولادهم، في شؤون الإيمان، أول المعلمين بالقول والمثال، وأن يعنوا بدعوة كلّ منهم، ولاسيّما الدعوة المقدسة» (في الكنيسة، ١١).

ولدينا مثال رائع آخر لهذه «الكنيسة البيتية»، يأتينا من التاريخ القديم لأرمينيا المسيحية. سنة ٤٤٩، أعلن ملك الفرس، الذي كان سلطانه يمتد في تلك الفترة على نصف أرمينيا، مرسوما يفرض على جميع الأرمن أن يعتنقوا ديانة زاراتوسترا،

وذلك لكي يوحّد الإمبرطورية ويجعلها أكثر تماسكا وقوة. ويروي أحد مؤرخي تلك الفترة كيف أن المسيحيين قاوموا هذا المرسوم، ويقول إن ملك الفرس «أغلق الكنائس، وختم أبوابها في جميع أرجاء بلاد الفرس. فما كان من المسيحيين إلا أن جعلوا من كل بيت كنيسة، وفي كل مكان كانوا يحتفلون بطقوسهم المقدسة، وكان كل واحد منهم يعتبر نفسه كنيسة، لاعتقادهم أن البناء الأفضل هو البناء البشري أكثر من البناء المصنوع من التراب». ويضيف المؤرخ هذه الشهادة المؤثرة: «كان كل واحد منهم، في الوقت عينه، الكنيسة والكاهن، وكان جسد كلٍّ منهم مذبحًا مقدسًا، ونفسُه ذبيحةً مقبولة». لقد فهم هؤلاء المسيحيين معنى «الكنيسة البيتية» وعاشوه في أسمى معانيه.

هذا هو شعار الأسرة المسيحية: أن تكون «كنيسة بيتية». وفي هذا الصدد، نقرأ التعابير البالغة الجمال التي نطق بها البابا بولس السادس (المتوفى في ١٩٧٨) والواردة في رسالته الرعوية «إعلان الإنجيل» (١٩٧٦): «إن الأسرة، أسوة بالكنيسة، ينبغي أن تكون المجال الذي يُنقَل له الإنجيل، ومنه ينطلق مُشعًّا. وعليه، فداخل كلّ أسرة واعية برسالتها، يقوم جميع أفرادها ببشارة الإنجيل، ويَقْبَلون في الآن ذاته هذه البشارة. فالوالدان لا يقتصران على نقل الإنجيل إلى أولادهما، وإنّما قد يحدث أن

يتلقيا منهم هذا الانجيل ذاته الذي يُعاش في عمق. ومثل هذه العائلة تقوم بالبشارة الإنجيلية تجاه العديد من العائلات، وتجاه البيئة التي تندمج فيها» (٧١).

الجسد والروح

ينبغي أن تتجسَّد هذه الإشارات الثمينة بتطبيقات عملية في الأسر المسيحية. يقول البابا يوحنا بولس الثاني: «يتقوّى الايمان عندما نعطيه» (رسالة الفادي، ٢). إن المشاركة في عطايا الايمان تحصل أولا في البيت. إنّ الأهل هم أوّل من يَهَبُون الايمان من خلال طلب العماد. فعندما يقدّمون ابنهم او ابنتهم إلى العماد، يسألهم الكاهن عند باب الكنيسة: «ماذا تطلبان من الكنيسة لابنكما؟»، ويجيب الوالدان بشكل اعتيادي: «نعمة العماد المقدس». وفي الرتبة ايضا أجوبة أخرى ممكنة: «الايمان» أو «نعمة المسيح» أو «الحياة الأبدية».

أليس من الطبيعي أن يهتمَّ الأهلُ باعطاء أبنائهم، منذ ولادتهم وأثناء سنوات نموّهم، أحسن الأشياء، أو أكثر الأشياء نفعًا لهم، ضمن إمكاناتهم؟ فيوفّرون لهم الطعام الضروري، والملبس، وبيتا مضيافا، ومن ثمّ يبعثونهم إلى الروضة، وبعدها إلى المدرسة بجميع مراحلها، متحملين من أجل ذلك التضحيات الكثيرة، لأنّهم يعتبرون أنّه من الأهمية بمكان أن يوفروا لأبنائهم

التنشئة والتربية اللازمتين. إنّ جميع هذه الأشياء قِيَمٌ مقدّسة. وهذا ما يؤكّده يسوع ذاته عندما يقول: «مَن منْكم إذا سأله ابنه رغيفًا أعطاه حجرًا؟ أو سأله سمكة أعطاه حيّة؟» (متى ٧: ٩). ولكن يسوع يعلّم أيضا ألا نهتم فقط بما نأكل أو بما نشرب أو بما نلبس، ويضيف: «اطلبوا أولا ملكوته وبرّه تُزادوا هذا كله» (متى ٦: ٣٣). لا يكفي أن نُطعم الجسدَ بالخبز والعقلَ بالعلم، بل يطلب أيضا أن نغذّي الانسان من خبز الله، لأنه «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكلّ كلمة تخرج من فم الله» (متى ٤: ٤). وهذا الخبز الحيّ هو جسد الرب، والماء الحيّ هو العماد، والعلم الحقيقي هو معرفة يسوع. فقد قال هو ذاته: «الحياة الأبدية هي أن يعرفوك أنت الإله الحقّ وحدَك ويعرفوا الذي أرسلته يسوع المسيح» (يوحنا ١٧: ٣). على الأهل أن يغرسوا، قبل كلّ شيء، هذه القِيَم المسيحية.

أيها الآباء، أيها الأبناء

كانت الأسر المسيحية، أيامَ الرسل، واعيةً لهذه المسؤوليات. من أجل هذا، لا ينفكّ القديس بولس عن تكرار بعض التوصيات، الموجهة للأبناء وللأهل، على حدٍّ سواء، حيث يقول: «أيها الأبناء، أطيعوا والديكم في الرب، فذلك عدل. أكرم أباك وأمك...، وأنتم أيها الآباء، لا تُغيظوا أبناءكم،

بل رَبُّوهم بتأديب الربّ ونُصحه» (أف ٦: ١-٤؛ راجع ايضا قو ٣: ٢٠-٢٣). وأيضا، حَرِص آباء الكنيسة في القرون الغابرة، أمثال اوريجينس، وباسيليوس، وأغسطينس، ويرونيموس، على مناشدة الأهل على تربية أبنائهم على مخافة الله، وهم يوصونهم بخدمة الله وعمل ما يرضيه، ويعلّمونهم الإنصاف، والقيام بالصدقة، والصلاة لله، وفي بعض الأحيان لا يتوانون عن تحذيرهم وتوبيخهم. إنّ الكلمات التي يوجهها القديس يوحنا الذهبي الفم إلى الأهل المسيحيين لها دلالاتها العميقة:

«عندما تعودون إلى بيوتكم، أعدّوا طاولتين: الواحدة لطعام الجسد والأخرى لطعام كلمة لله. أما الزوج، فيعيد لأبنائه ما سمعه في الاجتماع المقدس، ويجب على الزوجة أن تتعلّم، والأبناء أن يسمعوا. على كلّ واحد منكم أن يحوّل بيته إلى كنيسة. ألستم مسؤولين عن خلاص أبنائكم؟ أما عليكم أن تؤَدّوا يومًا الحساب عن ذلك؟ كما علينا، نحن الرعاة، أن نؤدّي حسابًا عن أنفسكم، كذلك الآباء يجب أن يؤدّوا حسابًا لله عن جميع أهل بيتهم» (عظات في سفر التكوين ٧، ١-٢).

الفصل الثالث

العائلة المقدسة في الناصرة مدرسة إيمان

مدرسة بيت الناصرة

في كانون الثاني سنة ١٩٦٤، جاء البابا بولس السادس حاجًا إلى الأراضي المقدسة. وبمناسبة زيارته لبيت مريم وكنيسة البشارة في الخامس من كانون الثاني، ألقى خطابًا جديرًا بالذكر. من الجميل أن نقرأه بأكمله، إذ نجده في ليتورجيا الساعات (الطقس اللاتيني) يومَ عيد العائلة المقدسة. وبما أنّنا لا نستطيع أن نستشهد به كلّه، نتوقف على الأقلّ عند بعض الكلمات المعبّرة، التي تشدّد على أنّ عائلة الناصرة كانت مدرسة إيمان.

«بيت الناصرة هو مدرسة، فيها تبدأ معرفة حياة يسوع المسيح: فهي مدرسة إيمان... هنا نرى الطريق الذي يمكنُنا به أن نعرف المسيح. هنا نفهم كم يجب أن نأخذ بعين الاعتبار جميع الأمور المتعلّقة بسكناه بيننا، المكان والزمان والعادات واللغة، والطقوس المقدسة، وبكلمة، كلّ ما استخدمه يسوع ليُظهر نفسه للعالم. هنا كلّ شيءٍ ينطق، كلّ شيء له معنى. في هذه المدرسة ندرك لماذا يجب أن نُنمّي في أنفسنا حياة روحية ملتزمة، إذا أردنا أن نتبع تعليم الإنجيل، وأن نكون تلاميذ المسيح. كم نودّ لأن نبدأ طفولتنا من جديد، لندخل مدرسة الناصرة، هذه المدرسة

المتواضعة والسامية. كم نودّ أن نبدأ دراستنا مع مريم، فنتعلّم منها علم الحياة الحقيقية وفهم الحقائق الإلهية... أول درس هو الصمت... يا لَصمت الناصرة! علِّمْنا أن نكون راسخين في الأفكار الصالحة، متنبِّهين لحياة الروح فينا، مستعدِّين لسماع إلهامات الله الخفية، وإرشادات المعلّمين الحقيقيين. علِّمْنا أهمية وقيمة الجهود التي يراها الله وحده في الخفية، من دراسة وتأمل وتنظيم الإنسان لصميم حياته الداخلية. هنا نفهم كيف تكون حياة العائلة. هنا في الناصرة، نفهم ما هي العائلة، ما هي شركة الحبّ فيها، نفهم جمال العائلة ببساطتها وجدِّيَّتها، وقدسيّتها التي لا يجوز الاعتداء عليها. هنا نتعلّم عذوبة العائلة، ونفهم ما هي مهمّتها الأصيلة في كلّ نظام اجتماعي، هي المؤسَّسة التي لا يقدر أن يحلّ محلّها أيّ نظام آخر. وهنا نتعلّم أخيرا ما هو العمل. يا لَبيت الناصرة، الذي اقامَ فيه ابن النجار!».

يوسف ومريم ويسوع في حياتهم اليومية

إنّنا نعرف القليل من الأناجيل عن الحياة اليومية ليوسف ومريم ويسوع، في حياتهم العائلية المشتركة في الناصرة. فقد ذُكرت فقط بعض الأحداث من طفولة يسوع وفتوّته، وهي التي نعرفها تمام المعرفة: الميلاد، التطهير، التقدمة إلى الهيكل، الهرب إلى مصر والرجوع منها، العثور على يسوع في الهيكل. في هذه الأحداث، تصف الأناجيل بعض مواقف يوسف ومريم

بصفتهما خطيبين، ومن ثم زوجين، وبالتالي والدي يسوع. أما بالنسبة إلى الطفل يسوع، فإنّنا نجد فقط كلمة واحدة منه، وهي التي قالها في الهيكل، مجيبا بها والديه اللذين عثرا عليه أخيرًا. قال لهما: «لِمَا بحثْتُما عنّي؟ ألم تعْلَما أنّه يجب عليّ أن أكون عند أبي؟». (لو ٢: ٤٩)

ولكن ثمّة عبارة تلخيصية تكشف الكثير من الحقائق العميقة والخفية، وهي النصّ المعروف الذي يقول: «وكان يسوع يتسامى في الحكمة والقامة والحظوة عند الله والناس» (لو ٢: ٥٢). أما النصّ الموازي فإنه يكرّر تقريبًا نَفْسَ الكلمات: «وكان الطفل يترعرع ويشتدّ ممتلئا حكمة، وكانت نعمة الله عليه» (لو ٢: ٤٠).

لنترك جانبا الكلمات التي تذكر نموّ يسوع «في القامة والنعمة»، لأنّ الجانب الأول من النمو (السنّ أو القامة) هو طبيعي وعادي لدى جميع البشر، أمّا الجانب الثاني من النمو («في الحظوة» او «النعمة»)، فينبوعه الله بالذات. نتوقّف عند نموّ يسوع «في الحكمة». هنا أيضا، الينبوع الأول لهذه الحكمة هو الله، «أوّل الحكمة» (ام ٩: ١٠). ولكن النمو في الحكمة يساهم فيه البشر أيضًا، سواء الفرد نفسه، أو مَن يقوم بتربيته. ومما لا شكّ فيه أنّ يسوع، الذي كان يعيش في الناصرة مع يوسف ومريم و«كان طائعا لهما» (لو ٢: ٥١)، كان ينمو في الحكمة ويتعلّمها منهما، إذ وضع نفسه في مدرستهما. كان

يوسف رجلا «بارّا» (مت ١: ١٩)، وبالتالي لم يكن يعرِف شريعةَ الربّ ويدرسها ويمتثل لها فحسب، بل حَرِصَ أيضا على أن ينشيء الطفل يسوع عليها، أسوة بمريم. فكُلّما تقدّم في السن، كان يصطحبه إلى المجمع للصلاة الجماعية يومَ السبت. وأسوة بمريم، كان يأخذه معه إلى اورشليم للأعياد الكبرى، وهذا ما يذكره الإنجيل حيث يقول إنّ أبويه كانا «يذهبان كلّ سنة إلى أورشليم في عيد الفصح» (لو ٢: ٤١).

بيت صلاة

درّب يوسفُ ومريمُ الطفلَ يسوع على الصلاة في البيت يومَ السبت، بحسب التقليد اليهودي، حيث كانت الأم هي التي تستقبل السبت كأنّها عروس وتشعل الشموع التي ترمز إلى النور، في البيت، (راجع لو ٢٣: ٥٤). وكان يسبِقُ إضاءةَ الشموع دعاءٌ تطلب فيه الأم من الله أن تكون أهلا لتربية الأبناء على طريق التوراة. وكان الأب، لدى عودته من المجمع، يتلو صلاة البركة. وبشكل خاص في عيد الفصح، وفي هذا العيد تقضي الرتبة بأن يسأل أصغرُ الأبناء أهله حول معنى العيد: «لماذا تختلف هذه الليلة عن غيرها؟ لماذا نستطيع في الأيام الأخرى أن نأكل الخبز بالخميرة أو بدونها كما نشاء، وفي هذه الليلة نأكل الخبز الفطير فقط؟ لماذا نأكل في كلّ مساء جميع أنواع الخُضار، بينما نكتفي،

في هذه الليلة، بالأعشاب المرّة؟ لماذا لا نغطّ شيئًا في الخمر، بينما نقوم بذلك مرتين في هذه الليلة؟ لماذا نتناول الطعام في كلّ ليلة جالسين، بينما نتناوله في هذه الليلة مُستندين؟...». ومما لا شكّ فيه أن مثل هذه الأسئلة كانت تعود للطفل يسوع. وعندما كان يوسف يتلو الكتب المقدسة، بصوت عالٍ، كانت كلمات الله تتغلغل في قلب الفتى يسوع.

وعلى هذا النحو، تعلّم يسوع أشياء كثيرة من والديه، واشياء أكثر عن طريق الغوص بالتأمل في الله ابيه بالذات، الذي كان ينيره. كان يسوع يصلّي، ويصغي إلى الآب في صمت الليل، وفي أوقات العمل مع أبيه يوسف، وفي الأسفار... ولكن أهل الناصرة لم يكونوا على علم بكل ذلك. وهذا ما جعل الجميع، وهم يسمعونه يفسّر الكتب المقدسة في المجامع، يتعجبون من تعليمه ويتساءلون: «من أين له هذه الحكمة وتلك المعجزات؟ أليس هذا ابن النجار؟ أليست أمّه تُدعى مريم وإخوته يعقوب ويوسف وسمعان ويهوذا؟ أوليس جميع أخواته عندنا؟ فمن أين له كلّ هذا؟». (مت ١٣: ٥٤-٥٦)

إيمان مريم

بالإضافة إلى تعليم يوسف ومريم، كانت تنشئة يسوع على الإيمان تتمّ من خلال رؤيته مثال الإيمان في والديه. فقد

كانا يعيشان بالإيمان، كما تشهد على ذلك الأناجيل المقدسة. كانت مريم امرأة مؤمنة. فقد آمنت بالبشارة التي حملها إليها الملاك جبرائيل. أما اليصابات نسيبتها فقد أعلنتْ أنها طوباوية لهذا السبب، حيث تقول: «طوبى لمن آمنت: فسيتمّ ما بلغها من عند الرب» (لو ١: ٤٥). وكانت مريم تنمو في الإيمان، كما يشير إلى ذلك انجيل لوقا مرتين: كانت مريم «تحفظ جميع هذه الأمور وتتأملُها في قلبها» (لو ٢: ١٩)، وأيضا: «كانت أمّه تحفظ تلك الأمور كلّها في قلبها» (لو ١: ٥١). كانت مريم تحفظ الأحداث والكلمات وتتأمل فيها. وحتى في حياة يسوع العلنية، «سلكت العذراء الطوباوية سبيل الإيمان»، كما يقول المجمع الفاتيكاني الثاني. (في الكنيسة، ٥٨)

تناول البابا يوحنا بولس الثاني موضوعَ مسيرةِ مريم الإيمانية وتعمّقَ فيه (راجع أم المخلص، ١٢–١٩). ففي قانا تؤمن مريم بقدرة يسوع وتقول: «مهما قال لكم فافعلوه» (يو ٢: ٥). وفي حياة يسوع العلنية، نراها تصغي إلى كلام يسوع، وتطبّقه في حياتها (راجع لو ٨: ٢٠–٢١؛ ١١: ٢٧–٢٨). وعند صليب يسوع، تعيش في الإيمان، «متأملة مع ابنها الوحيد آلامًا مُبرِّحة، مشتركة في ذبيحته بقلب والدي، مولية ذبح الضحية المولود من دمها رضى حبّها» (في الكنيسة، ٥٨). من هذا المنطلق، كانت مريم أوّل معلّمة للإيمان لابنها يسوع، قبل أن تصبح تلميذةً ليسوع المعلم،

وكذلك كانت أيضا معلمةً ومثال الإيمان للكنيسة الناشئة، حيث اتحدت مع الرسل والمؤمنين الأولين في الصلاة. (راجع أع ١: ١٤)

إيمان يوسف

أما يوسف، فهو يؤمن بكلام الملاك الذي يطمئنُه في الحلم بشأن بتولية مريم. وبإيمان صامت، «قام يوسف من النوم، وفَعَل كما أمَرَه ملاك الرب فأتى بامرأته إلى بيته» (مت ١: ٢٤). وبإيمان، قام يوسف و«أخذ الطفل وأمّه ليلا ولجأ إلى مصر» (مت ٢: ١٤). وبإيمان أيضا، وبعد أن تراءى له الملاك، «قام فأخذ الطفل وأمه ودخل أرض اسرائيل» (مت ٢: ٢١). وفي الناصرة، عاش بإيمان حياته اليومية، حيث كان نجّارا يعمل بيديه، مُوفِّرا للأسرة ما تحتاجه، ومُتّحدًا بالصلاة مع يسوع ومريم. هكذا، كان إيمان مريم ويوسف إيمانًا كاملا بكلّ أبعاده، أي إيمانًا مقبولا ومُعاشًا ومَنْقولا. فكان لهذا كلّه الأثر البالغ في يسوع. يرد في الرسالة إلى العبرانيين نصّ ملفت للنظر حول إيمان يسوع الشخصي (بصفته إنساناً)، الذي كان يتنفَّسه في بيئته العائلية، والذي تعمَّق في وجدانه وعاشه طيلة أيام حياته، حيث يدعو مؤلّف هذه الرسالة المسيحيين إلى أن يكونوا «محدّقين إلى مبدأ إيماننا ومُتمِّمه» (عب ١٢: ٢). في إيمانه، كما في حبّه، يسوع هو «الأول والآخِر» (رؤ ١: ١٧). بالإيمان والثقة، أسلم يسوع ذاته كليّا لمشيئة الآب!

الفصل الرابع

الاحتفال بالإيمان معًا في الأسرة

مما لاشكّ فيه أنّ الايمان يجعل الأسرة مُتحدة. ولكن كيف يمكن أن نعبّر عن الايمان، ونعيشه معًا، ونحتفل به في الأسرة؟ هنا، ننتقل من النظري إلى العملي، من الأقوال إلى الأفعال، من الاصغاء إلى كلمة الله إلى الحياة في المسيح. قَبِلَ كلّ واحد منا الايمان بفضل أهله الذين قدّموه للعماد، فضمّوه إلى الكنيسة، شعبِ الله. ولكن هذا لا يكفي بالطبع. إن هذه الخطوة الأولى والأساسية يجب أن تواصل مسيرتها. ما هي المراحل التي يجب أن تقطعها هذه المسيرة، وما هي الوسائل التي تستعملها؟ إنّ تقليد الكنيسة الذي يمتدّ على مدى ألفي سنة يزوّدنا بتعاليم كثيرة وبأمثلة في هذا المجال. إن الأمكنة العادية التي نتعلّم فيها عيش الايمان هي البيت والكنيسة والمجتمع. وهي جميعها تعتمد على هذا الأساس المتين، أي الأسرة. إذا كانت الأسرة لا تعرض الايمان، ولا تسنده، ولا تعيشه، فإنّ إيمان أبنائها يمكن أن يهتزّ ويتحوّل إلى نور خافت، وقد يصل إلى حدّ الزوال. إن لم تكن الأسرة مبنيّة على صخرة الايمان، فإنّ بناء الايمان يتعرّض للانهيار.

نحاول الآن أن نرى كيف يمكن للأسرة أن تسند الإيمان في هذه البيئات المختلفة، في البيت والكنيسة والمجتمع.

أولا: في البيت

الأسرة هي البيئة الأولى

يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أنّ الأسرة هي البيئة الأولى التي يعي فيها الطفل أنّه شخصية مهمة يصغي إليها الآخرون، ويفهم، فيما بعد، أنّه «شخص». ومن الواجب أن يحبّ الأهلُ الله وأن يحبّوا بعضهم بعضا، وأن يشعر الأولاد بذلك. كما أنّه من الأهمية بمكان أن يُعْرِب الأهل عن ودّهم لأبنائهم من خلال لفتات ملموسة: الاهتمام بهم شخصيا، تكريس الوقت اللازم لهم، الاهتمام بشؤونهم، احترام ما يفكّرون به، أو يقولونه أو يعملونه. في مثل هذا المناخ، تصبح الأسرة المدرسة الأولى للإيمان. إنّ الطفل الذي ينمو يجب أن يشرب الإيمان مع حليب أمّه ومن قلب والده. يلاحظ الطفل كلّ شيء، ويشعر بكلّ شيء، ويتعلّم ويستوعب ما يدور حوله وخاصة، عندما يحيط به عطف والديه. وعندما ينمو، يبدأ بطرح الأسئلة حول ما يحيط به، وما يشعر به ويراه ويفكر فيه. إنّ الأرضية الدينية وأرضية القيم تنمو فيه في مثل هذا المناخ من العطف، والثقة،

والألفة والحب، وهذا ما سيعطي لاحقا ثمارًا طيّبة. إنّ حبّ الأهل للطفل يصبح علامة حقيقية لحبّ الله المجاني لأبنائه.

فرَصُ الحياة اليومية

انطلاقا من هذا المبدأ العام، يجب أن يعرف الأهل كيف يغتنمون الفرص، التي توفرها الحياة اليومية، كي ينشئوا ابناءهم – كلٌّ بمفرده وجميعهم معا – على الحسّ بالله، فتتحول هذه المناسبات إلى صلاة، تنطلق من ظروف الحياة اليومية أو من أحداث مميّزة وخاصة، تجري قراءتها في ضوء حضور الرب الدائم. وفي هذا الصدد، ينصح يوحنا بولس الثاني قائلا: «فالأفراح والأتراح، الآمال والأحزان، الولادات وذكراها السنوية، يوبيل زواج الوالدين، الغيابات والعودات، الاختبارات الخطيرة الحاسمة، وفاة الأحباء، وأمثال هذه الحوادث تظهر محبة الله التي تتدخل في مجرى أحوال العائلة، ويجب كذلك أن تشير إلى الوقت المناسب لتأدية افعال الشكر والابتهال وتسليم العائلة ذاتها للآب المشترك الذي في السماء». (في وظائف العائلة المسيحية في عالم اليوم، ٥٩)

يجب أن يدرك الأبناء أنّ الله قريب منا، وأنّه خلقنا، ويحبّنا، ويدعونا إلى أن يحبّ بعضنا بعضًا. فهو الذي يوفِّر لنا الخبز وخيرات الأرض من أجل معيشتنا، ويضفي على الشمس النور

والجمال، ويهبنا المطر والثلج، لأنه خالق كلّ شيء، خالق السماء والأرض. ولقد خلقنا، لأنه يُحبّنا ويُريدنا سعداء، هنا على الأرض ومن ثمَّ في السماء. وهذا ما يحملنا على أن نشكُرَه ونسبِّحه ونحبّه. يريد الله لنا أفضل حياة، لأنّنا جميعًا ابناؤه وإخوة فيما بيننا. وكما يحبّنا هو، يريد منا أيضًا أن يحبّ بعضنا بعضا. على سبيل المثال، عندما كانت والدة يوحنا بوسكو (الأم مرغريتا) ترى ليلا جميلا مُرصَّعًا بالنجوم، كانت تشير إلى السماء وتقول لأبنائها: «هو الله الذي خلق العالم، ووضع هذا العدد الكبير من النجوم. إذا كان الجَلَدُ بهذا الجمال، فكيف تكون السماء؟». وعندما كان الربيع يحلّ، وتكتسي المروج بالخَضار والزهور، أو لدى شروق فجْر صاف، او لدى مشاهدة غروب شمس جميل، كانت تهتف فرحًا أمام أبنائها: «يا لها من أشياء جميلة خلقها الله لنا!».

رموز وحركات وممارسات

في نفس هذا الاتجاه، ينبغي أن نعلّم أبناءَنا هذه الصلوات الجميلة التي تركها لنا تقليد الكنيسة، كالصلاة الربية والسلام الملائكي والصلاة إلى الملاك الحارس، وغيرها... وكما نعلّم الأطفال أن يقولوا «شكرا» وأن يطلبوا العون في أمور كثيرة، كذلك يجب أن نعلّمهم أن يقولوا «شكرا» لله، وأن يلجأوا إليه في احتياجاتهم ورغباتهم المرتبطة بظروف الحياة اليومية. ومن

البديهي أن يصلّي الأهل من أجل أبنائهم وأن يصلّوا معهم. إنّهم يدرّبونهم على الصلاة، ليس فقط من خلال الكلمات، بل أيضا من خلال نبرة الصوت، وتعبير الوجه، وحركة الجسم، وتقوى الذهن.

وفي هذا المجال، يجب أن نستعيد قيمة الرموز والحركات، التي تذكّرنا بالله وقدّيسيه. من هذه الرموز: الصور المقدَّسة أو الأيقونات، والصليب، وأيضا الشموع، والقنديل، والورد. وهذه كلّها توحي لنا بحضور الله، ومريم العذراء والقديسين. وفيما يتعلق بالحركات، يجب أن نولي الأهمية لبعض الممارسات البسيطة الدالّة. على سبيل المثال: أن نطرح تحية الصباح على أبنائنا، وأن نصلي معهم صلاة قصيرة أو «الصلاة الربية»، وأن نصلّي معهم قبل توجّههم إلى النوم، وكذلك الصلاة قبل الأكل وبعده، ومساعدتهم في درس التعليم المسيحي، وقراءة بعض الآيات من الإنجيل أو سَرْد حياة يسوع، ورسم إشارة الصليب على وجوههم لدى ذهابهم إلى المدرسة أو بمناسبة السفر أو الرحلات... إنّ المثل يأتينا من يسوع بالذات، حيث يقول الإنجيل: «ثمّ ضمّ الأطفال إلى صدره ووضع يديه عليهم وباركهم» (مر ١٠: ١٦). وثمّة بعض العائلات التي تصلّي السبحة الوردية أو جزءا منها في البيوت، ويشاهدون معا بعض البرامج الدينية على التلفزيون،

ويقومون ببعض التضحيات من اجل الفقراء (التضحية بالطعام، بالفلوس...). وفي هذا المجال، نرى أهمية ما يقوله البابا يوحنا بولس الثاني: «وهكذا يتقدّم التعليم المسيحي في العائلة كلّ صيغة أخرى، أيّا كانت، من صيغ التعليم المسيحي، ويتبعها ويوسّعها». (واجب تلقين التعليم المسيحي، ٦٨)

ومن الضروري أن نذكّر بأنّ الأهل، ينقلون بمسلكهم صورة مُحدَّدة لله. فإذا كانوا مُتسلّطين، مراقبين، فإنّهم ينقلون صورةً لإله يهمّه القوانين والعقاب وأنّه قاض قاس. وإذا كانوا متسامحين أكثر من اللازم وبعيدين عن أبنائهم، فإنّهم يَطْبَعون في قلوب ابنائهم صورةَ إله لا يهتّم بنا وبعيد عنّا. أما إذا اتّسمت علاقتهم بأبنائهم بالثقة والتواصل والحبّ، فإنّهم يوحون بصورة إله أب يحبّ وقريب منا. من الواضح أنّ التربية بشكل عام، والتربية الدينية بشكل خاص، تعتمد بشكل أساسي وحاسم على المثال الصالح. يقول الفيلسوف القديم، سينيكا: «إنّ الكلمات تعلّم ولكن المثال يجذب ويجرّ». من المعروف أنّ الأبناء يتمثّلون بأهلهم. فهم يراقبون، ويحكمون، ويتعلّمون. فعندما يعيش الأهل حياة الحبّ، والمغفرة، والعطاء، والخدمة، والجدّ في العمل، والاستقامة، والصدق، والتقوى، أي يعيشون الوصايا ويمارسون الفضائل المسيحية، فإنّ الأولاد يرون كلّ ذلك، ويميلون إلى التشبّه بهم. بهذه الطريقة، نخلق

حول الأولاد مناخًا من الإيمان الحيّ والعملي، على مثال العائلة المقدسة في الناصرة. أمّا إذا اهتمّ الأهل فقط بالأمور الدنيوية: بالمال، واللبس، والأكل، والمظاهر، والصيت، والنجاح، والملاهي، أو حتى بالعلم وحده، عندها تختفي أهمية الإيمان. فماذا يمكن ان يتعلّم الأولاد في جوّ من هذا النوع؟

معا في قداس يوم الأحد

إنّ أهمَّ مثال يمكن أن يقدّمَه الأهل إلى أبنائهم هو أن يرى الأبناء أهلهم يصلّون ويواظبون على قداس يوم الأحد، تتْميمًا لوصية الرب: «أذكرْ يوم السبت (الأحد) لتقدّسه» (خر ٢٠ : ٨). من المؤسف أن العديد من المسيحيين فقدوا معنى «يوم الربّ». أين هي الأوقات التي كانت فيها العائلات المسيحية تعطي الأولوية لقداس يوم الأحد على جميع انشغالاتهم الأخرى؟ كم من الأهل اليوم يبقون في منازلهم يوم الأحد، بحجة أنّهم بحاجة إلى الراحة، أو إعداد الطعام، أو الدراسة، أو مشاهدة التلفزيون، أو التسلّي، أو زيارة الأصدقاء والأهل... يقول يسوع: «ابن الإنسان سيّد السبت أيضا» (مر ٢ : ٢٨). إن يوم السبت، يوم الأحد بالنسبة للمسيحيين، هو ملكه وله. وعليه، يجب أن نكرّس له يومَ الأحد من غير أن نعتبر أنفسنا أسيادًا عليه، لأنّ الربّ هو سيد السبت (الأحد). لا يكفي أن يحثّ

الأهلُ أبناءهم على الذهاب إلى الكنيسة للمشاركة في الذبيحة الإلهية يوم الأحد، بل أن يكونوا أوّلَ من يعطي المثل في هذا المجال: هذا هو المثال الأفضل والشهادة الأجمل التي يمكن أن يقدّمها الأهل لأبنائهم. يقول البابا يوحنا بولس الثاني: «تعبّر العائلات أفضل تعبير عن هويتها وعن رسالتها ككنيسة بيتية عندما تشارك مع أبنائها في مائدة الكلمة ومائدة الخبز الواحدة». (يوم الرب، ٣٥)

وفي هذا المجال، يستطيع الأبناء أنفسهم أن يستحثوا الأهل والإخوة والأخوات لكي يرافقوهم إلى قداس الأحد. يمكن أن يقولوا لأهلهم بكلّ بساطة وشجاعة: «أمي، ابي، أريد أن اذهب للمشاركة في ذبيحة القداس، أريد أن أذهب للقاء يسوع، أن أقبله في المناولة. هل اذهب وحدي أم تأتون معي؟». ليس من النادر أن ينجذب الأهل إلى بساطة الإيمان وجماله بفضل أبنائهم. إن الأعياد واحتفالات الكنيسة هي المناسبات التي يتعلّم فيها الأولاد الإيمان المسيحي، حتى ولو أنهم لا يفهمون كلَّ ما يُقال فيها، حيث ترسخ في وجدانهم المشاهد، والرموز، والحركات، والمناخ، والأشخاص، واللوحات، والبخور، والشموع... كلّ هذا يشكّل كتاب التعليم المسيحي الأول الذي يفتح المجال للسلوك في طريق الإيمان. وهنا تتعاون الكنيسة والعائلة وتتكاملان في مسيرة

النموّ والنضج الانساني والمسيحي للأولاد. ما من مشهد أجمل من أن نرى الأهل والأبناء يشاركون معًا في الاحتفال الافخارستي. إنه عيد العائلة، بما فيه من ترنيم ومشاركة في المائدة الواحدة وتبادل علامة السلام.

مثال شهداء ابيتينيا

في هذا الإطار، يطيب لنا أن نذكر مثالا رائعا وصلنا من مجموعة من المسيحيين من شمال افريقيا في القرن الرابع، وهم المعروفون بشهداء ابيتينيا. في تلك الفترة، كان الامبرطور ديوكليسيانس يضطهد المسيحيين. ولهذا الغرض، أمر بأن يُمنع هؤلاء من الاجتماع في بيوتهم الخاصة. وفي مدينة ابيتينيا، وهي مقاطعة رومانية في شمال افريقيا (تونس الحالية)، اجتمع ٤٩ مسيحيا، من رجال ونساء وشبان وأطفال، في بيت المدعوّ ايميريتوس، لأنّهم رأوا في أمْر الامبراطور ظُلمًا. فقد كانوا يعرفون جيدا جواب بطرس لليهود الذين منعوه من التبشير بيسوع المسيح: «الله أحقُّ بالطاعة من الناس» (أع ٥: ٢٩). وقد اكتشفتهم السلطات بينما كان الكاهن ساتورنينوس يحتفل بالأسرار المقدسة يومَ الأحد في بيت ايميريتوس. فزجوهم جميعًا في السجن ومن ثمّ اقتادوهم الى المحاكم للنظر في أمرهم. فوجّه الحاكم انولينوس السؤال إلى ايميريتوس: «هل تمّتْ في بيتك اجتماعات خلافًا لمرسوم الامبرطور؟». فأجاب ايميريتوس وقد امتلأ من الروح القدس: «في بيتنا احتفلنا بقداس الأحد». فقال له الحاكم: «لماذا سمحتَ لهم أن يدخلوا بيتك؟»، فأجاب: «لأنّهم إخوتي ولا أستطيع أن أمنعهم». فقال الحاكم: «ومع ذلك، كان من واجبك أن تمنعهم». فأجاب: «لا أستطيع، لأنّنا، نحن المسيحيين، لا نستطيع أن نعيش بدون قداس الأحد».

إنّ هذه الواقعة تعلّمنا أنّنا يجب أن نتشارك في الإيمان ونتقاسمه. كلُّ عضو يعيش في الأسرة إيمانه بشكل شخصي بالطبع، ولكنّه لا يعيشه بشكل انفرادي، بل إنّه مدعوّ إلى نقل خبرته الروحية ومشاركة الآخرين بها. صحيح أنّ كلّ فرد حرّ، ويمكن أن يقبل أو يرفض كلمة الإيمان، ولكن من الصحيح ايضا أنّ نقول إن للمثال الصالح في الأسرة تأثيرا كبيرا، خصوصًا إذا رافقه الحبّ وأسنده.

ثانيا: في الكنيسة

نفهم الكنيسة هنا بمعنيين:

١) الكنيسة – البناء؛

٢) الكنيسة – جماعة المؤمنين. إنّ الكنيسة هي بيت الله

وأيضا بيت الجماعة المسيحية، افرادًا وجماعة. فهي مفتوحة للجميع، وتدعو إلى التقوى والاحترام، لحضور الله فيها بشكل مميّز، خصوصا في بيت القربان. إنّ الكنيسة هي المكان الذي يتمّ فيه الاحتفال بالأسرار المقدسة بشكل اعتيادي، والتي ندعوها «أسرار الإيمان»، لأنها تعبّر عن إيمان الكنيسة من جهة، وتستدعي الإيمان في مَن يقبَلُها من جهة أخرى. من المناسب أن يضمّ الاحتفال بالأسرار جميع افراد الأسرة، على تنوّعهم.

الاحتفال بالعماد

إن العمّاد هو عملٌ كنسيٌّ بامتياز، وبالتالي ينبغي أن يكون أيضًا حدثًا عائليّا. يحسنُ أن تشارك الأسرة كلُّها في ليتورجيا العماد لأحد أبنائها. فالجميع معنيّون وشهود. فالأب والأمّ يطلبان العماد من الكنيسة، لينضمّ ابنهم أو ابنتهم إلى عائلة الكنيسة الكبيرة، جسد المسيح السري. أما الإخوة والأخوات، فإنّهم يفرحون بتلك الحياة الجديدة التي يقبلها أخوهم أو أختهم. وجميعهم يجدّدون مواعيد المعمودية والتزامهم بالحياة في المسيح، وبالمسيح، ومع المسيح. ولهذا، يجب أن يتمّ الاحتفال بشكل جيّد، بمشاركة الجميع. وهذا ما يتطلّب من المُحتفِل (أي الكاهن) أن يسعى إلى خلق الجوّ

المناسب للاحتفال، وهو جوّ الفرح والتسبيح والشكر والانتباه والمشاركة. ولهذا الغرض، يمكن أن يستخدم عناصر الليتورجيا الجميلة: الكلمات، الحركات، الرموز، الزينة، المكان، الأشياء، الأشخاص...

الاحتفال بالتثبيت

وسرّ الميرون أو التثبيت أيضا، الذي يُمنح عادةً في الكنيسة اللاتينية في عمر متقدّم، يجب أن يُحاط بالعناية اللازمة. وهنا ايضًا، يجب أن تشعر العائلة كلّها أنّها معنيّة بهذا الاحتفال، فلا يقتصر اهتمامهم على العيد في البيت، بل أن يشاركوا في منح السرّ ويفهموا معانيه. إنّ الفتى أو الفتاة يُقْبِل، مع هذا السرّ، إلى مرحلة جديدة من عمره، والسيد المسيح يرافقه في هذه المرحلة الجديدة، بما فيها من جمال ومن صعوبات. ويطلب الأهل من الربّ أن يسندَهُم لتنمية حياة أبنائهم في هذا العمر، الحافل بالصعوبات، والحافل أيضًا بالآمال والجمال.

الاحتفال بالافخارستيا

إنّ بؤرة الإيمان الأساسية هي الافخارستيا، قمة الليتورجيا وينبوعها. فمن الضروري أن تكون في قلب حياة العائلة المسيحية. ألا تجتمع كلّ عائلة حول المائدة لتناول الطعام معا؟

وهكذا، ينبغي أن تجتمع العائلة المسيحية حول مائدة الخبز الإلهي. قد لا يستطيع الجميع أن يشاركوا في نفس الاحتفال (ليس هذا ممكنا في كلّ وقت)، ولكن يسوع «الخبز السماوي» يظلّ دائما طعامهم الحقيقي، وهذا ما يقتضي أن يلتزم به جميع افراد الأسرة يومَ الأحد. ليس الموضوعُ موضوعَ واجب أو أمر، بل هو موضوع حبّ وفرح وعيد. من لا يرغب في البقاء مع حبّه الأكبر؟ أليس يسوع هو هذا الحبّ الأكبر، والعون الأكبر، والحاجة الكبرى؟ إنّ كلمات شهداء ابيتينيا يجب أن تكون أيضًا كلماتنا: «بدون يوم الأحد، لا نستطيع أن نعيش». إنّ كلّ تاريخ الكنيسة، كما يذكّرنا بذلك التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، يؤكّد بوضوح أنّ «الاحتفال، يومَ الأحد، بيوم الرب وافخارستياه هو في قلب حياة الكنيسة» (٢١٧٧)، وبالتالي، في قلب حياة كلّ عائلة مسيحية وفي قلب حياة كلّ مؤمن. ونعمة الأحد تكون أكثر خِصْبًا إذا رافقتها أعمال المحبة: زيارة المرضى والمسنين، مساعدة الفقراء...

التعليم المسيحي في البيت

ثمّة مجال آخر للتعاون بين الرعية والعائلة المسيحية، وهو التعليم المسيحي. صحيح أنّ القائمين على هذا العمل هما الرعية والمدرسة، ولكن يجب على الوالدين أن يتعاونا

هما أيضا في هذا العمل. وذلك، بحرصهما، قبل كلّ شي، على تزويد أبنائهما بأحسن تربية دينية في المدرسة، وعلى أن يشارك أبناؤهما في التعليم المسيحي في الرعية، خصوصا لدى استعدادهم للمناولة الأولى وقبول سرّ التثبيت. أما في البيت، فيجب أن يساعد الأهل أبناءهم في الدرس، والواجبات، وفي قراءة الكتاب المقدس. وإذا وجدوا أنّهم يفتقرون إلى التأهيل الكافي، فهذا حافز لهم كي يطّلعوا، ويقرأوا، ويفهموا، وأن يلجأوا إلى صديق أو راهب أو راهبة أو كاهن لمساعدتهم. أما الأهمّ، فهو توفير بيئة إيمان في البيت والتصرّف في ضوء الايمان، وَفْقَ تعاليم يسوع. إنّ الايمان هو، قبل كلّ شيء، هواءٌ نتنفَّسُه ونورٌ نراه. في أجواء من هذا النوع، يستطيع الأبناء أن يعيشوا الايمان ويترجموه إلى مسلك يومي.

ثالثا: في المجتمع

عيش الإيمان في المجتمع

يعيش المسيحي إيمانه خارجَ البيئة العائلية في المجتمع، وهو بيئة صعبة. وتأتي صعوبتها من أنّ الآخرين ينظرون إلينا ويحكمون علينا. في هذه الحالة، يمكن أن نستسلم للخجل البشري، ونكتفي بعيش إيماننا بشكل فردي. وهذا هو

التحدّي الأكبر لمسيحي اليوم: عيش الإيمان في المجتمع، دون خوف ولا اختباء. من الضروري أن نتذكّر كلمة يسوع: «من يستحي بي وبكلامي في هذا الجيل الفاسق الخاطئ يستحي به ابن الانسان، متى جاء في مجد أبيه ومعه الملائكة الأطهار» (مر ٨: ٣٨). واليومَ، وأكثر من اي وقت مضى، تبقى الشهادة للإيمان أكثر نجاعة من الكلام. وهنا نتذكر ما قاله البابا بولس السادس: «الإنسان المعاصر يصغي بترحيب أوفر إلى الشهود أكثر من المعلمين...، وإذا أصغى إلى المعلمين، فإنما يصغي إليهم لكونهم شهودا» (اعلان الإنجيل، ٤١). عندما تكون الأسرة بأكملها شاهدة للإيمان، فانّها تشعّ حولها. إنّ شهادة الإيمان، التي تؤدّيها العائلات المسيحية، هي إحدى وسائل الإعلان الجديد للبشرى الإنجيلية.

الفضائل الاجتماعية

إنّ إيمان الأسرة المسيحية في المجتمع، خصوصا في بيئة من التعدّدية الدينية او اللامبالاة تجاه الدين، يتجلّى بشكل خصوصي عن طريق الفضائل الاجتماعية: الضيافة، اللقاء الأخوي، العمل المجاني، الخدمة السخية، المشاركة، التضامن، احترام الآخرين وتقديرهم. ولهذا كلّه قيمة أكبر من أيّ كلام، حيث إنّ الأعمال هي التي تتكلّم. إنّ الإيمان الساكن في قلبي

يقول لي: «ساعدْ هذا الشخص، ليس لأنّه صديقك، أو من أقربائك، أو لمصلحة ما، بل ساعدْهُ لأنّك ترى فيه وجْهَ يسوع المسيح. فالسيد المسيح نراه، بشكل من الأشكال، في كلّ محتاج: في الجائع، والعطشان، والعريان، والوحيد، واليائس... (راجع مت ٢٥: ٣١-٤٦). من ناحية أخرى، يدعوني الإيمان إلى التصرّف تصرّفا حسنا في المجتمع، لكي لا أكون مصدر شكّ وعثار للآخرين، خصوصا الصغار، فأستحقَّ كلمات يسوع القاسية (راجع مت ١٨: ٦)، تماما كما لا أريد أن يكون الآخرون شكّا وعثارًا لأبنائي. يدعوني الإيمان إلى الاستقامة، والصدق، واحترام الجميع في المجتمع، وتوصيني ألا أسرق، أو أكذب، أو أغتاب أو أن أهين الآخرين. إذا كنا نعيش إيماننا بهذا الشكل، فينطبق على الأسرة كلام يسوع الرائع: «أنتم ملح الأرض... أنتم نور العالم». (مت ٥: ١٣-١٤)

الفصل الخامس

نماذج حيّة لعائلات مسيحية امتازت بالقداسة

قد نقول: هل من الممكن أن نعيش كلّ هذا؟ من المعروف أنّ الأسرة، وبشكل خصوصي الأسرة المسيحية، تمرّ بصعوبات وأزمات جمّة، نذكر منها: الصعوبات الاقتصادية، والصراع بين الأجيال، وفي بعض الأحيان الانقسامات بين الأهل، والابتعاد عن الحبّ والتربية. في هذه الحالة، كيف يمكن أن تعيش الأسرة إيمانها بسلاسة وتنقله إلى الأبناء؟ إنّ أحسن جواب هو عرض أمثلة حية، وُجدت في الماضي ولا تزال في الحاضر. من الخطأ الاعتقاد أنّ الحياة في الماضي كانت أسهل من الحاضر. يجب ألا نعيش في الأوهام. لكلّ عصر صعوباته. ومع ذلك، ففي كلّ عصر عائلات قديسة، أهلٌ قديسون، أبناءٌ قديسون، فتيان وفتيات قديسون.

نتوقّف عند بعض النماذج من الأمس واليوم، من الغرب ومن الشرق، لعائلات عاشت إيمانها بكلّ عمقه. وهي نماذج من القرون المسيحية الأولى (القديس باسيليوس وعائلته، من الشرق والقديسة مونيكا وابنها اغسطينس، من الغرب). أما في عصرنا، فنقدّم نموذج عائلة القديسة تريزيا الطفل يسوع

(فرنسا)، ونموذج الزوجين بيلترامي كواتروكي (ايطاليا)، وعائلة القديسة جانّا بيريتا مولا (ايطاليا).

باسيليوس الكبير: عائلة من القديسين

تمثّل عائلة القديس باسيليوس نموذجًا فريدًا في تاريخ الكنيسة والقديسين. فقد أعلنت الكنيسةُ قداسةَ ستة من افراد هذه العائلة الكبيرة، وهم جميعًا موضع تكريم في الكنيستين الأورثوذكسية والكاثوليكية. نذكر أسماءهم واحدا واحدا: الجدة، القديسة ماكرينا؛ أمّه، القديسة اميليا؛ اثنان من إخوته، القديسان غريغوريوس وبطرس، اللّذان أصبحا أسقفين؛ إحدى أخواته، القديسة ماكرينا؛ وأخيرا، هو ذاته، القديس باسيليوس. نضيف أن جدّه هو قديس واسمه ايضا باسيليوس. فقد مات شهيدًا في عهد الامبرطور الروماني ديوكليسيانوس. ما هو سرّ هذه القداسة في عائلة واحدة؟ من المؤكّد أنّ الينبوع الأول لهذه القداسة هو الله بالذات، الذي يعمل في أبنائه ويوزّع نِعَمَه على من يشاء. ولكن الله يطلب من البشر التعاون مع نعمته. وهكذا فقد تعاون أفراد عائلة باسيليوس مع الله، في عيشهم بنعمة الإيمان واستثمارها.

زُرعت البذرة الأولى لهذه القداسة في قلب الجدّة ماكرينا، التي عرفت كيف تزرعها بدورها في قلب ابنتها ايميليا. وهذه الأخيرة رزقها الله عشرة أولاد. ومن بينهم القديس باسيليوس،

الذي ولد عام ٣٢٩، والذي ترك لنا هذه الشهادة الجميلة عن جدته: «لن أنسى أبدًا في حياتي تلك الدوافع القوية التي كانت تزرعها، في قلبي الطريّ، كلمات وأمثال هذه الجدّة التقيّة». ولكنّ ما أثّر فيه بشكل خاص هو أخته، التي كانت تحمل أيضا اسم ماكرينا، والتي اعترفت الكنيسة بقداستها، ويدعوها التقليد ماكرينا الابنة. ولقد امتازت هذه الشابة عن قريناتها بجمالها المميز، مما جعل الكثيرين من الشبان يتقدمون لطلب يدها. ولقد توفي خطيبها قبل الاحتفال بالاكليل. عندها، قرّرت أن تتكرّس كليّا لله. في السنوات الأولى، بقيت في بيتها، لتساعد أمّها وإخوتها التسعة، حيث كانت أصغرهم. كان لها، بطيبتها ومثالها، الأثر البالغ على أخيها باسيليوس. درس هذا الأخير في أهمّ المعاهد العلمية في ذلك الوقت، في قيصرية بونطوس، والقسطنطينية، وأثينا، وأصبح استاذًا في الخطابة (التي كانت تشمل وقتها علومًا كثيرة). ولكن قلبه لم يكُن مرتاحًا، وفق ما قاله هو نفسه فيما بعد في إحدى كتاباته: «لقد أضعتُ وقتًا طويلا وراء هذه الأباطيل، إذ صرفتُ كلّ شبابي في انشغالات غير ضرورية». في سنّ الثلاثين، وبفضل مثال اخته ماكرينا، سمع نداءَ الربّ وكرّس نفسَه له. قَبِلَ العماد وانصرف إلى حياة النسك، فاتخذت حياته وجهة جديدة. وبعد أن ذهب إلى مصر ليتعلّم الحياة

النسكية من رهبان الصحراء، عاد إلى بلدته. لم يكتف بأن أصبح راهبا، بل أسّس أيضا دَيرا وضع له القوانين هو نفسه. لقد أراد أن ينقطع الرهبان، بالإضافة إلى الصلاة، إلى العمل وأعمال المحبة. ومِن ثَمَّ رُسِم كاهنا، وأخيرًا أصبح أسقف قيصرية كابادوقيا. كَتب الكثير في اللاهوت والحياة النسكية، كما ترك لنا الكثير من الخطابات والعظات. وترك أيضا وراءه مُجمَّعًا كبيرا يضمّ مستشفيات ومكانًا لمعالجة البرص.

بعد موت الأب، وبعد أن وجّهت الأم ماكرينا أبناءها كلٌّ في طريقه، أقنعت ماكرينا أمّها أن تتخلى عن هذه الحياة المضطربة، وأن تحوّل بيتها شيئا فشيئا إلى مكان للصلاة والحياة المشتركة، مع مجموعة من النساء التقيات والعذارى والأرامل. وهكذا نشأ دير نسائي، يشابه في قوانينه القوانين التي كتبها القديس باسيليوس، وبروحية مشابهة، تؤسِّس للحياة المشتركة والصلاة والعمل.

وكان لباسيليوس أيضا أخوان آخران، غريغوريوس وبطرس، لم يكونا أقلّ غيرة من باسيليوس وماكرينا في السعي إلى القداسة. فغريغوريوس، وبعد دراسة الخطابة والعيش في الحياة المدنية، مرّ بأزمة روحية، أصبح بعدها راهبا، ومن ثمّ كاهنا، وأخيرا أسقفًا لمدينة نيصص. كتب الكثير في اللاهوت، مما أكسبه لقب «غريغوريوس اللاهوتي». أما أخوه بطرس،

فقد كان يتيمًا إذ تُوفي أبوه وهو في سنّ الرضاعة. ولقد نشأ هو أيضا على يديّ ماكرنيا، وأصبح راهبًا في دير أخيه باسيليوس، وأصبح فيما بعد كاهنًا واسقفًا، وتميّز بمحبته للجميع وحكمته في إدارة ابرشيته.

القديسة مونيكا وابنها أغسطينس

«لا يمكن أن يضيع ابنُ لهذه الدموع»: من هو الذي قال هذه الكلمات المُعزيّة لمونيكا، أم أغسطينس؟ إنّه أسقف قديس جاءته مونيكا لتستشيره بشأن ابنها أغسطينس. كانت مونيكا تتألّم بسبب ابنها اغسطينس، الذي ابتعد عن طريق الربّ، وراح يفكّر فقط بالدنيويات. فقد عاد بعد دراسته في قرطاجة، ليس فقط بشهادة عالية، بل ايضا مع امرأة كان يساكنها وقد ولدت له ابنًا (سماه اديوداتوس، أي عطاالله). وقد تمادى في ضلاله، إذ فقد المبادئ المسيحية التي زرعتها أمّه في قلبه وتبع بِدعة المانويين. أصبح أغسطينس معلّما كبيرا، ولكن أمّه راحت تذرف الدموع بسببه. فذهبت إلى أسقف قدّيس، فقال هذا الأسقف القديس لها هذه الكلمات: «اتركيه بحاله. فقط صلّي من أجله. سيكتشف هو ذاته خطأه بواسطة مطالعاته، كما سيكتشف كم هو جسيم كُفْره. لا يمكن أن يضيع ابنُ هذه الدموع». وكانت أقواله نبويّة.

كانت مونيكا مسيحية حقيقية، وكانت أيضا امرأة قوية تجاوزت كلّ صعوبات الحياة والآمها. في سنة ٣٥٣، تزوجت من نبيل روماني، اسمه باتريسيوس، ومنه رُزقت بثلاثة أبناء. هو ذاتهً لم يكن مسيحيا، وكانت طباعه عنيفة، ولم يحافظ على الأمانة الزوجية. ولكن مونيكا اكتسبت زوجها للإيمان، بفضل مثالها وصلاتها. فقد قَبِل العماد وعاش حياة أمانة. ولكن ابنها اغسطينس تمادى في ضلاله، وكان سببا لتعاستها بسبب حياته الدنيوية، إذ كان يبحث دائما عن فلسفات وخبرات جديدة. وزاد ألمها، عندما عرفت أنّ ابنها هرب من عندها وتوجّه إلى ايطاليا، حيث راح يمارس مهنة التدريس في ميلانو اولا، ومن ثم في روما. ولما مات زوجها، فَهِمَتْ مونيكا أنّ رسالتها الآن هي السعي إلى اهتداء ابنها اغسطينس. سافرتْ مع ابنها ايفاجريوس إلى ايطاليا ووصلت ميلانو. وكان أسقف المدينة في حينه القديس امبروزيوس، وكان رجل الله حقًا. فذهبتْ إليه وقد جذبتها عظاته.

كانت النعمة تعمل في قلب أغسطينس. فبعْدَ انتقاله من فلسفة لأخرى، ومن معلّم لآخر، سَمِع يومًا صوتًا يقول له: «خُذْ واقرأ!». فأخذ الكتاب المقدس، وقرأ بعض صفحاته، فسقطت للتوّ كلُّ شكوكه. عندها غمره نور ساطع وفرحِ عارم. وهذا ما بشّر به أمَّه، التي راحت تبكي من الفرح. قَبِل

أغسطينس العماد، وترك التعليم، و لم يعد يهمّه إلا أمر واحد وشخص واحد هو يسوع المسيح، وليسوع المسيح يريد أن يكرّس بقية حياته. خطّط هو وأخوه للعودةَ الى قرطاجة. ولكن، لدى وصولهما إلى ميناء أوستيا (روما)، شعرت مونيكا بالألم وأحسّت أنّها تقترب من الموت. لم تكن حزينة، بل سعيدة، لأن الله قَبِل دموعَها واستجاب صلواتها.

في الحديث الأخير مع ابنها أغسطينس، أسرّت مونيكا لابنها بكلمات لا تُنسى: «يا ابني، لم يعد أيّ شيء بشري يجتذبني. فقد أستُجيبت جميع آمالي على الأرض. شيء واحد كان يشدّني إلى البقاء على الأرض، وهو أن أراك مسيحيا كاثوليكيا قبل أن أموت. ولقد استجاب الله لرغبتي استجابةً واسعة، لأنّي أراك الآن تحتقر الأرضيات لتخدمه. ماذا بقي، إذن، لي على هذه الأرض؟» (الاعترافات). ولقد توفيت بعد ذلك بقليل عن عمر يناهز السادسة والخمسين، بعد أن تفوّهت بهذه الكلمات الأخيرة لأبنيها: «ادفنا جسدي حيثما أردتما. لا تهتما بذلك. إنّما طلبي هو أن تذكراني، أينما كنتما، على مذبح الرب» (الاعترافات). كان أغسطينس عند ذاك في الثالثة والثلاثين من العمر. عاد إلى افريقيا، وأصبح راهبا، ومن ثمّ كاهنا وأسقفا على إيبونا. لقد كان من أعظم الأساقفة ومن أعظم آباء الكنيسة.

أسرة القديسة تريزيا الطفل يسوع

لقد عُرف الزوجان لويس مارتان (توفي سنة ١٨٩٤) وزيلي جيران (توفيت سنة ١٨٧٧) أنّهما والدا القديسة تريزيا الطفل يسوع. قبل أن يتعارفا ويعقدا الزواج، كانا يعتقدان أنّ الله يدعوهما إلى الحياة المكرسة. ولكن الله دعاهما إلى أن يعيشا كزوجين، فيكونا قدّيسين كزوجين وكوالدين وكعائلة. كان الزوجُ صانعَ ساعات وصاحب محلّ للذهب، والزوجة خياطة ومُطرّزة. وقد عاشا ملء حبّ الله وعرفا كيف ينقلانه إلى بناتهما الخمس، اللواتي بهرهُنَّ مثال والديهن إلى حدّ أنهن دخلن كلّهن الدير وقد استولى عليهن حبّ الله. أكثرهن شهرة هي تريزيا الطفل يسوع. عندما كانت، في طفولتها، ترى والدها وهو يصلي، كانت تفكّر بينها وبين نفسها: «هكذا يصلّي القديسون!». عاش لويس وزيلي الانجيل في بيتهما أولا ومن ثم كزوجين، وأخيرًا كوالدين، بالقول والعمل. فقد نقلا أوّل مبادئ الإيمان إلى بناتهما، منذ نعومة أظفارهن. كانا لهنّ أوّل مُعلّمي الصلاة ومعرفة الله ومحبته. كانا يصلّيان على انفراد أو معهن، كما كانا يصطحبانهنّ إلى الكنيسة للمشاركة في الذبيحة الإلهية وزيارة القربان الأقدس. وكانوا جميعًا يعيشون يوم الأحد كعيد الرب. وكان يطيب لتريزيا أن تنظر إلى وجه والدها

أكثر مما كانت تستمع للواعظ. وكتبت عنه قائلة: «كان وجه والدي يقول لي أشياء كثيرة»، وايضا: «إنّ الله الطيب أعطاني أبًا وأمّا يستحقّان السماء أكثر من الأرض».

كان بيتهما مفتوحا للجميع، وكانا يساعدان كثيرين ويحثّونهم على عمل الخير. ولم يكن مارتان الأب يخجل من إظهار إيمانه علنًا. ففي كلّ مناسبة وفي كلّ مكان، كان يبيّن أنّ الله، بالنسبة إليه، هو المخدوم الأول. أما الابنة سيلين (التي اصبحت راهبة فيما بعد تحت اسم جنفييف)، فقد شهدت في دعوى تطويب والدها، وذكرت «جمال حياة زوجية عاشاها كليّا من أجل الله من غير أي أنانية أو انغلاق على الذات. إذا أراد عبد الله (والدي) الكثير من الأبناء، فكان ذلك لكي يهبهم لله من غير تحفُّظ. وكلّ هذا، في بساطة حياة عادية ومثابرة على العمل ألمّت به الكثير من المحن التي قبلها بروح الاستسلام والثقة بالعناية الإلهية». في التاسع من تشرين الأول سنة ٢٠٠٨، أعلنه (أي الوالد) البابا بندكتس السادس عشر طوباويًا.

أما بناتهما الأربع فقد اخترن الحياة الرهبانية، وتكرَّسن لله في البتولية. واسماؤهن معروفة لمن قرأ «تاريخ نفس»، وهي سيرة حياة القديسة تريزيا كتبتْها بخطّ يدها، وهنّ بحسب ترتيب العمر: ماري، بولين، ليوني، سيلين، تريز. أصبحت الأوائل منهن والأواخر راهبات كرمليات، أما ليوني

فأصبحت أولا راهبة كلاريسية ومن ثمّ من راهبات الزيارة. وكانت تريزيا الأكثر شهرة، لأنّ الكنيسة أعلنتها قديسة. ولقد انتشرت روحانيتها، وخصوصا «طريقتها الصغيرة»، التي فتحت الطريق كي يعلنها البابا يوحنا بولس الثاني إحدى ملافنة الكنيسة. لقد كانت هذه القديسة من أكثر القديسات اللواتي أولاهنّ الناس محبةً وتكريمًا. إن الدير الذي عاشت فيه في ليزييه (فرنسا) هو أكثر الأمكنة التي يرتادها الحجاج المسيحيون من كلّ أنحاء العالم.

الطوباويان الزوجان بيلترامي كواتروكّي

عاش لويس بيلترامي كواتركّي (توفي سنة ١٩٥١) وماريا لويزا كورسيني (توفيت سنة ١٩٦٥) معًا كزوجين طيلة خمسين عاما. ولقد تقدّسا عن طريق حبّهما المتبادل. فقد تحابّا بكلّ رقّة، وأحبّا أولادها الخمسة، كما أحبّا القريب وخدماه، خصوصًا المريض والمحتاج. كان لويس محاميا، وماريا لويزا كاتبة. ولقد كانت حياتهما متميزة في ظروفهما اليومية المعتادة. كانا يشتركان يوميّا بذبيحة القداس، وفي كلّ مساء كانا يتلوان السبحة الوردية في البيت، وكلما استطاعا، كانا يشتركان في السجود للقربان ليلا. لقد وضعا تمثال قلب يسوع الأقدس في مكان الشرف في غرفة الطعام. إنّ

مثال حياتهما، وحياة الإيمان العميقة التي تميّزا بها، وممارسة الصلاة اليومية، خلقت في بيتهما مناخًا من الإيمان أثّر تأثيرا عميقا في أولادهما. وليس من الغريب أن يشعر الأربعة منهم بدعوة الربّ الى الحياة المكرسة: أصبح فيليب واسطفان كاهنين، وأصبحت استفانيا وانريكيتا راهبتين. ولقد كانت ولادةُ الأخيرة عجائبية. لقد كان الحمْل بها صعبًا ومأساويّا، مما حمل الأطباء على نصح الأم بالاجهاض تحاشيًا للموت. ولكن الزوجين رفضا رفضًا قاطعًا ووضعا ثقتهما بالله. وفي يوم الاثنين المقدس لسنة ١٩١٤، ولدت انريكيتا، وقد شهد الأَطباء باندهاش لحالتها الجيدة، هي وأمّها.

لقد أعلنهما البابا يوحنا بولس الثاني طوباويين في الذكرى العشرين لرسالته الرعوية حول العائلة. فارتفع على الهياكل، لأول مرة في تاريخ الكنيسة، زوجان ليكرمهما الشعب المؤمن.

القديسة جانّا بيريتا مولا، ربّة عائلة

تحمل جانّا رسالةً حاليّة ملؤها الجمال والحياة. بصفتها امرأة، أحبّت كلَّ ما هو جميل. وكمسيحية، كانت شاهدة لحياة الانجيل، وبصفتها زوجة وأمّا، أفاضت حبّ يسوع في عائلتها، وبصفتها طبيبة، كانت تعالج الحياة وتحتضنها، إلى حدّ بذل الذات. فقد فضّلت الموت كي تعطي المجال لابنتها أن

ترى النور. توفيت بعد ست سنوات ونصف من الحياة الزوجية والعائلية سنة ١٩٦٢، تاركة زوجها وثلاثة أبناء. كرّرت جانّا في نزاعها أكثر من مرة: «يا يسوع، إنّي أحبّك، إنّي أحبّك». ولقد شاركت ابنتها جانّا ايمانويلا في روما بحفل إعلان قداسة والدتها (في ١٦ آيار ٢٠٠٤) أسوة بوالدها بيترو.

لقد نشأت جانّا في حضن عائلتها في أجواء من الإيمان والمحبة تجاه الله والفقراء، وقبلت المناولة الأولى في سنّ مبكرة، ولم تتجاوز الخامسة والنصف من عمرها في ١٩٤٨. ومن ذلك الوقت، راحت ترافق والدتها إلى القداس اليومي، وجعلت من الافخارستيا خبزها اليومي، فكانت سندًا لها ونورًا في مراحل عمرها المتعاقبة. كانت تحبّ الأشياء الجميلة: الموسيقى، والرسم، والرياضة، والرحلات في الجبال. كتبت في صباها تقول: «أريد أن أخاف الخطيئة المميتة كما وكأنها أفعى، وأكرّر من جديد: أفضّل الموت ألف مرة على أن أهين الربّ». في فترة دراستها في الجامعة، كانت فتاة رقيقة ذات إرادة قوية ومتحفظة، وكانت روحانيتها تنمو فيها شيئا فشيئا. كانت تشارك كلّ يوم في ذبيحة القداس، وتتناول القربان الأقدس، وتقوم بزيارة القربان والتأمل وتلاوة السبحة الوردية. ولقد توّجت دراساتها بدكتوراة في الطب وتخصّصت في طبّ الأطفال.

أثناء خطوبتها، كانت تكتب لخطيبها: «يا بيترو، إنّي أحبك كثيرًا جدًا، وأنتَ دائما ماثِل فيّ، منذ الصباح حيث أقدّم عملي وعملك وأفراحك وآلامك أثناء القداس، وهذا يستمّر طيلة النهار حتى المساء». لقد استعدّا معا للاحتفال بالاكليل بثلاثية من الصلاة، مشتركين بالذبيحة الإلهية ومتناولين القربان الأقدس. قبل الزواج، كتبت لخطيبها: «إنّ مريم العذراء ستوحِّد صلواتنا وأشواقنا. وبما أنّ الوحدة تعطي القوة، فلا يستطيع يسوع إلا أن يصغي إلينا ويساعدنا». بعد أن عقدا الزواج في الربّ، رزقهما الله ابنين وبنتين. ولما حَمَلت بالرابعة، اكتشف الأطباء ورما خبيثًا في الرحم. لقد خافت على الجنين الذي في بطنها، فقالت لزوجها: «إذا كان لا بدّ من الاختيار بيني وبين الطفل، فلا داعي للتردد: اخترِ الطفل وهذا ما أُصرّ عليه. خلِّصه هو». وفي نزاعها، كانت تردّد: «يا يسوع، إنّي أحبّك، يا يسوع إنّي أسجد لك، يا يسوع ساعدني، يا مريم أمّي ساعديني». توفيت يوم السبت بعد عيد الفصح سنة ١٩٦٢، عن عمر يناهز التاسعة والثلاثين فقط.

خاتمة

بدأنا بالمخطّط الرعوي العام، وننتهي به. يستشهد المخطط، بشأن التربية المسيحية في البيت، بالإرشاد الرسولي للبابا يوحنا بولس الثاني حول «وظائف العائلة المسيحية في عالم اليوم»، حيث يقول: «وخصوبة الحبّ الزوجي لا تقتصر على إيلاد البنين،...، لأنّها تشمل جميع ثمار الحياة الأدبية والروحية والفائقة الطبيعة» (١٠٤)، ويستأنف المخطّط استشهاده بالارشاد المذكور حيث يقول: «إن مهمّة الوالدين المسيحيين التربوية... تدعوهم إلى مشاطرة الله الآب والمسيح الراعي السلطة والمحبّة، ومشاطرة الكنيسة الأم محبّتها الوالدية... ليساعدوا أبناءهم على إدراك نضجهم الإنساني والمسيحي» (٣٨). وهذا ما التزم به الوالدان لدى قبولهم سر الزواج المقدس ولدى تقديم أبنائهم إلى العمّاد المقدس.

كما سبق وقلنا، يهدف هذا الكتيّب إلى توعية الأهل على هذه الرسالة المسيحية الأساسية. وهذا ما يقع ضمن رسالة أوسع للعائلة المسيحية في وقتنا الحاضر. وهذا أيضًا ما يتطلّب من الكنيسة أن تطوّر عملا رعويا متكاملا تسند فيه الأسرة المسيحية في رسالتها هذه، وذلك بمرافقتها قبل الزواج، واثناء حفل الأكليل، وبعد الزواج. بهذه الطريقة، تتجدّد

العائلة المسيحية، فتكون قادرة على القيام بمسؤولياتها في حياة الكنيسة، وفي عملية الإعلان الجديد الذي تدعو إليه الكنيسة في ايامنا الحاضرة. ولا يسعنا إلا أن نختم بالنداء، الذي يوجهّه البابا بندكتس السادس عشر في إرشاده الرسولي «الكنيسة في الشرق الأوسط» (٢٠١٢)، إلى العائلات المسيحية في الشرق الأوسط: «أدعوكِ، أيتها العائلات المسيحية في الشرق الأوسط، إلى أن تتجدّدي دومًا بقوة كلمة الله والأسرار، لتكوني أكثر فأكثر «الكنيسة البيتية» التي تربّي على الإيمان والصلاة، وتكوني مشتل الدعوات، والمدرسة الطبيعية للفضائل والقيم الأخلاقية، والخليّة الحيّة والأولى للمجتمع... ساعدي أبناءَكِ على النموّ في الحكمة، والقامة والنعمة تحت نظر الله والناس. علّميهم الثقة بالآب، والاقتداء بالمسيح، والانقياد للروح القدس». (٥٩)

الفهرس

مقدمة **٣**

الفصل الأول: الجدّة لئيس والأم أونقة... وآخرون **٥**

– لئيس وأَوْنِقة ٥

– من الآباء إِلى الأبناء إلى الأحفاد ٦

– شهادة العهد القديم ٧

الفصل الثاني: الزوجان أقيلا وبرسقلة يكوّنان كنيسة بيتية **٩**

– كنيسة الله في بيت أقيلا وبرسقلة ٩

– مثال بولس ١١

– الكنيسة البيتية ١٢

– الجسد والروح ١٤

– أيها الآباء، أيها الأبناء ١٥

الفصل الثالث: العائلة المقدسة في الناصرة مدرسة إيمان **١٧**

– مدرسة بيت الناصرة ١٧

– يوسف ومريم ويسوع في حياتهم اليومية ١٨

– بيت صلاة ٢٠

– إيمان مريم ٢١

– إيمان يوسف ٢٣

الفصل الرابع: الاحتفالات بالإيمان معًا في الأسرة **٢٤**
– أولا: في البيت ٢٥
– ثانيا: في الكنيسة ٣٣
– ثالثا: في المجتمع ٣٧

الفصل الخامس: نماذج حيّة لعائلات مسيحية
امتازت بالقداسة **٤٠**
– باسيليوس الكبير: عائلة من القديسين ٤١
– القديسة مونيكا وابنها اغسطينس ٤٤
– أسرة القديسة تريزيا الطفل يسوع ٤٧
– الطوباويان الزوجان بيلترامي كواتروكّي ٤٩
– القديسة جانّا بيريتا مولا، ربة عائلة ٥٠

خاتمة **٥٣**